الدعاء
لغيرك ما مددت يدا

يقول الله تعالي :

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:60]

ويقول حبيبك ﷺ :

إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ : " وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ "

رواه أصحاب السنن والحاكم وقال الترمذي : حسن صحيح

وقال العبد الصالح :

ها قد مددت يدي إليك فردها

بالفضل لا بشماتة الأعداء

تمهيد

من روضة الزهد انطلقنا بعد أن عشنا في رحابها مدة وحللنا بساحتها زمناً ، فعرفنا قيمة الدنيا وخبرنا زورها وزخرفها ، بعد أن طالعنا أقوال الصالحين ، وأحوال الربانيين ، ثم بدا لنا أن نشد الرحال نحو روضة أخرى ، فجددنا النية وعقدنا العزم ، ومضينا في راحة ورضا ، نبحث عن أقرب روضة من الزهد لنحط بها رحالنا ، فإذا شجرة ظلها ظليل ، وهواؤها عليل ومرأها جميل ، فيممنا وجوهنا شطرها وأسرعنا نحوها ، فإذا ورقة منها قد تدلت ، وعليها بخط ظاهر ، وحروف من نور باهر ، كلام في غاية الحسن يسر الناظر ويسعد الخاطر ، للعبد الصالح : مطرف بن عبد الله يقول : تذكرت ما جماع الخير ، فإذا الخير كثير ، الصوم والصلاة ، وإذا هو في يد الله عز وجل ، وإذا أنت لم تقدر على ما في يد الله عز وجل إلا أن تسأله فيعطيك ، فإذا جماع الخير : الدعاء[1] ، فلما قرأنا أدركنا أن الخطى تقودنا نحو روضة الدعاء ، وإذا الباب قريب ، وعليه بأروع حرف وأجمل خط مكتوب ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:186] فأسرعنا يحدونا الشوق إلى إدراك هذه الروضة ، لننعم بما حباها المولى من خيرات ، ونتفيئ ظلالها لحظات ، ونمتع الروح ببهائها ، ونطعم القلوب من خيراتها ، ونسعد النفوس بحورها وولدانها ، ونزكي أبصارنا برؤية شواطئها وأنهارها ، قال صاحبي : لقد شوقتنا وهيجت نفوسنا ، فقلت : نحن على بعد خطوات ، وها هو الباب يفتح ، فترجل أيها الحبيب ثم انطلق.

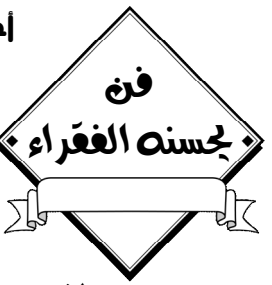

أخي الحبيب : إن رفع اليد ، وبسط الكف ، وكسرة القلب ، وخضوع الوجه ، وهيئة الطالب الذليل والسائل الفقير ، كل ذلك فن لا يحسنه إلا الفقراء ولا يتقنه إلا السعداء ، أولو النهى وأرباب التقى ، وأصحاب القلوب المنكسرة لمولاها ، والجباه المعفرة لسيدها وخالقها ، نعم أخي إن الفقر إلى الله فن لا يحسنه سوى الفقراء الذين يمرغون وجوههم في التراب ، ويدمنون

(1) الزهد صـ 295 . الإمام أحمد . ط دار الريان .

قرع الأبواب ، طمعا في الوصول إلى حضرة الملك الوهاب ، هؤلاء هم الناس أخي ، وعيب أن يقال لغيرهم ناس ، فتراهم يتقلبون على بساط الفقر والذل والخضوع والانكسار ، لا يعرفون الغنى إلا مع مولاهم ، ولا العز إلا في الإقبال على سيدهم الذي أطعمهم من جوع كما أمنهم من خوف ، فهم الفقراء الأغنياء ، فقرهم إلى الله ، وغناهم عمن سواه ، الله عز وجل مولاهم ، ورضاه مرادهم ، وحماه ملاذهم ، وحبه زادهم ، واسمع أخي الحبيب إلى شيخ الإسلام ابن القيم وهو يصف أحدهم فيقول : (**فالفقير خالص بكليته لله سبحانه ، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظ ونصيب ، بل عمله بقيام شاهد الحق وفناء شاهد نفسه ، قد غيبه شاهد الحق عن شاهد نفسه ، فهو يريد الله بمراد الله ، فمعوله على الله ، وهمته لا تقف دون شيء سواه ، قد فنى بحبه عن حب ما سواه ، وبأمره عن هواه ، وبحسن اختياره له عن اختياره لنفسه ، فهو في واد والناس في واد ، خاضع متواضع سليم القلب ، سلس القياد للحق ، سريع القلب إلى ذكر الله ، برئ من الدعاوى لا يدعى بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله ، زاهد في كل ما سوى الله ، راغب في كل ما يقرب إلى الله ، قريب من الناس أبعد شيء منهم ، يأنس بما يستوحشون منه ، ويتسوحش مما يأنسون به ، منفرد في طريق طلبه ، لا تقيده الرسوم ، ولا تملكه الفوائد ، ولا يفرح بموجود ، ولا يأسف على مفقود ، من جالسه قرت به عينه ، ومن رآه ذكرته رؤيته بالله سبحانه ، وقد حمل كله ومؤنته عن الناس ، واحتمل أذاهم وكف أذاه عنهم ، وبذل لهم نصيحته وسبل لهم عرضه ونفسه لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز ، لا يدخل فيما لا يعنيه ، ولا يبخل بما لا ينقصه وصفه الصدق والعفة والإيثار والتواضع ، والحلم والوقار والاحتمال ، لا يتوقع لما يبذله للناس عوضا منهم ولا مدحة ، ولا يعاتب ولا يخاصم ولا يطالب ، ولا يرى له على أحد حقا ، ولا يرى على أحد فضلا مقبل على شأنه ، مكرم لإخوانه بخيل بزمانه ، حافظ للسانه ، مسافر في ليله ونهاره ، ويقظته ومنامه ، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه ، قد رفع له علم الحب فشمر إليه ، وناداه داعي الاشتياق فأقبل بكليته عليه ، أجاب منادى المحبة إذا دعاه حي على الفلاح ، ووصل السرى في بيداء الطلب فحمد عند الوصول سراه ، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح**) [1].

---

(1) طريق الهجرتين . صـ 48 ، الإمام ابن القيم . ط المطبعة السلفية .

الآن عذرا أيها الحبيب : فقد أطلت في هذا الفصل ولا يد لي ولا حيلة ، فقد سحرني الإمام بسحره الحلال ، وسبى قلبى بهذا العذب الزلال ، فأعد قراءة هذا الوصف بقلبك قبل لسانك ، وأجل فيه البصيرة قبل البصر ، لتستشعر حقيقة الفقر التى أريد ، وتعلم أنك لا زالت بخيرمادام الفقر إلى مولاك هو وصفك ، ومادامت يدك ممدودة إلى سيدك تسأل وتطلب وتدعو.

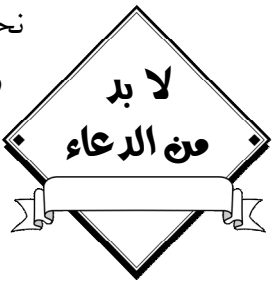

نحن إذن أيها الحبيب في روضة لا غنى لمسلم عنها ، أينما حل ، وحيثما نزل ، وفي أي وقت كان ، فالفقر مركبك ، والشوق حاديك ، والدعاء سلاحك ، ولن تواجه تحديات الحياة على كثرتها إلا بسيوف لا ترتد ، وسهام لا تخطئ وهتاف لا يرد ، ودعوات هي والإجابة قرينان لا يختلفان ولا يفترقان ، فانظر أخي ، هل لك عن الدعاء غناء ؟ لا والله ، **فالأخذ بالدعاء حتم لازم، لأنك** :

- إما أن تكون راعيا ولاك الله تعالى أمر رعية ، فأنت أفقر الخلق إلى الدعاء ، ليشد الله ملكك ، ويثبت حكمك ، ويرزقك التوفيق ، ويهديك إلى العدل ، ويحبب إليك الرعية ، ويحببك إلى الرعية،ولذا فالدعاء أنفع شيء لك ، وأصلح دواء لقلبك وبدنك.
- وإما أن تكون داعيا إلى ربك عز وجل ، وصاحب رسالة ، وحامل راية ، وطالب إصلاح ، وهادي أمة نحو ثورة مباركة خضراء تحمل الخير وتجلب البر وتحارب الشر ، ومن ثم فأنت أيها الحبيب أحوج الخلق إلى الدعاء وطلب العون ، وسؤال النصرة والتثبيت ، حتى يحق الله الحق بكلماته ، ويقطع دابر الذين ظلموا ، ويأمن الخلق في ظلال الإيمان والتقى وترتاح قلوبهم وخواطرهم بأنوار الحق وهدايات الوحي.
- وإما أن تكون مجاهدا في سبيل الله ، ترفع لواء الحق ، وتعلى راية الأمة ، وتحمل روحك على كفك فداء لدينك ، ونصرة لنبيك ، ودفاعا عن أمتك ، تطلب الأجر ، وتحتسب الوقت ، وتجعل من دمك الزكي وقودا يشعل الأرض تحت أقدام الغاصبين ، ويضيء طريق الحق أمام السائرين ، فإذن أنت إلى ربك أحوج ، وإلى

مولاك أفقر ، فأسأل ربك النصر ، واستنزل بالدعاء السكينة ، واطلب من ربك أن يفرغ عليك صبرا ، وأن يجمع شملك ، ويفرق شمل عدوك ، فهو منك قريب وأنت تشعر بذلك دائما وتحسه لا محالة في كل وقت.

- وإما أن تكون مريضا مبتلى ، جرت عليك سنة البلاء كما جرت من قبل على الأنبياء ، فتصبح وتمسى صريع دائك ، طريح فراشك ، ترجو السلامة وتطلب العافية وتنتظر الفرج ، فأنت إذن إلى الدعاء أشد فاقة ، وأعظم حاجة ، وأكثر فقرا ، فمد يدك ، وابسط كفك ، وفرغ قبلك ، وتوجه إلى ربك فاسأله أن يفرج كربك ، وأن يكشف ضرك ، وأن يرفع بلواك ، كما رفع عن أيوب بلواه ، وعندها لن تعود يدك خاوية ، لأنك تدعو كريما ، وتسأل مجيبا وتناجي قريبا .
- وإما أن تكون ذا عيال ، كثر عددهم ، وزادت مؤنتهم ،وتشعبت بك السبل في رعايتهم ، وعندها لا أنعت لك أيها الحبيب أفضل ولا أغلى من الدعاء فهو لك خير معين على حسن الرعاية ، ومشاق التربية ، وحسن التوجيه ، وهموم العيش ووسوسة الرزق ، فأسأل ربك أن يقوى ظهرك، وأن يثبت فؤادك ، وأن يهب لك من الزوج والذرية ما تقر به عينك ، وتطيب به نفسك ، وأن يكونوا جميعا يوم العرض في ميزان الحسنات بحسن التوجيه ، وسلامة التربية وجميل الهداية والتعليم.
- وإما أن تكون أيها الحبيب صاحب مال وتجارة ، تسعى في طلب الحلال ، لتكفى نفسك وتطعم أهلك، وتتصدق بعد ذلك من رزق الله على من هم حولك ، ويحتاجون إلى فضلك ، فأنت إذن أفقر الخلق إلى ربك وأحوجهم إلى مولاك ، في زمن اختلطت فيه الأمور ، واشتبك الحق بالباطل ، وصار الفارق بين الحلال والحرام شعرة وعرضت الفتن نفسها على الناس عرضا ، فاسأل ربك أن يبارك مالك ، وأن يزكي تجارتك ، وأن يطيب مطعمك وأن يرزقك من الحلال الخالص ما يصح به بدنك وتزكو به نفسك ، وتقبل به طاعتك ، ويرفع به عملك.

وبالجملة أيها الحبيب أنت في أي موقع كنت ، وعلى آية حال تقلبت ، بالليل والنهار ، في الخلوة والجلوة ، في غناك وفقرك ، في قوتك وضعفك ، في صحتك ومرضك ، في

مسيس الحاجة إلى الدعاء ، فحذار أن تنسى ، وإياك أن تنقطع عن باب مولاك ، وارفع أكف الضراعة في كل وقت ، ففي ذلك سعادة الدنيا وفلاح الآخرة ، وربك الغنى ذو الرحمة ، يحب أن يسأل ويغضب على من لا يسأله وهو القائل سبحانه ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:32]

أخي الحبيب ، ماذا لو سألت أخاك حاجة ؟ وماذا لو طلبت من جارك شيئا ؟ وماذا لو مددت يدك لقريب في ضر نزل بك أو ضائقة حلت بساحتك ؟ هل تراهم يفرحون بسؤالك أم يغضبون ؟ سأترك الجواب فهو ظاهر وعنوانه واضح ، وأنتقل بك سريعا إلى حديث عجيب من أحاديث الحبيب ﷺ أورده الإمام البخاري في الأدب المفرد والترمذي وقال : حسن ، أن النبي ﷺ قال : من لم يسأل الله يغضب عليه ، ياالله ! سبحانك ربي ما أعظمك ، وما أكرمك ، وما أوسع فضلك وأسبغ نعمك ، تأمل أخي هذا الحديث ، وقف أمامه ، ثم قارن بين البشر ورب البشر ، بين مخلوق ضعيف فقير يغضب إذا سألته ، والخالق الغني الكريم الذي يغضب عليك إن تركت سؤاله ، إن المعنى اللطيف الدقيق الذي التقطه هذا العبد الصالح ثم قدمه إليك منظوما في بيتين من الشعر غاية في الروعة ، فإن استطعت أن تحفظهما فافعل لتظل يدك ممدودة إلى مولاك ، معرضة عن سؤال فقير مثلك ، يطرق الباب كما تطرق ويطلب من مولاه كما تطلب **يقول الشاعر :**

لا تسألن بنى آدم حاجـــــة وسل الذي أبوابه لا تحجـب
الله يغضب إن تركت سؤاله وبنى آدم حين يسأل يغضب

نعم أيها الرجل ، قد والله صدقت ، إن ابن آدم يغضب عند السؤال ، ويعرض بوجهه عندما تمتد إليه يد ، أما الذي برأ آدم وذرية آدم ، ورزق آدم وبنى آدم ، فإنه لا يغضب على أحد غضبه على من أعرض عنه وسأل غيره ، وهل يليق بعاقل أن يطرق بابا مغلقا قد يفتح أو لا يفتح ، ويترك بابا مفتوحا صاحبه قريب ، وقاصده لا يرد ؟ وهل من الصواب أخي أن تترك بيت غنى غناه ظاهر ، وعطاؤه وافر ، وكرمه منظور وفضله مشهور ، إلى بيت فقير مثلك ظهر فقره واشتهر بين الناس بخله ؟ لا أيها

الحبيب اللبيب ، فالفقير لا يسأل فقيرا ، وإذا مد الفقير يده فإنما يمدها لغنى ظاهر الغنى حتى لا تعود فارغة ولا تنقلب خائبة ، ولقد كان يحيي بن معاذ – رحمه الله تعالى – فقيها عندما راح يدعو مولاه بهذا الدعاء : يا من يغضب على من لا يسأله ، لا تمنع من قد سألك [1] ، الله أكبر ، اقرآ أخي هذا الدعاء ، ثم ادع به في خلوتك ودع معناه يمرق إلى قلبك ، فإني أخاف على عقلك أن ينبهر وعلى قلبك أن ينفطر ، فأسأل ربك الثبات أمام نفحات الصالحين ، والصبر على معاني الربانيين .

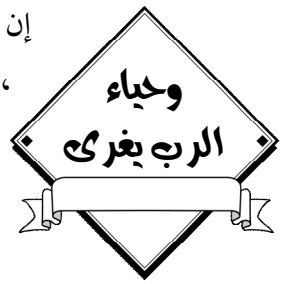

إن مما يحرك النفس للدعاء ، ويدفع المرء أن يمد كفه نحو السماء ، يستنزل النصر إن كان في معركة ، ويطلب العافية إن كان في شدة وبلاء ومرض ، ويسأل ربه التوفيق إن كان على مفترق أو في بداية طريق ، أقول أخي الحبيب ، إن ما يحرك النفس إلى الدعاء ويشوق القلب إليه : حياء الرب سبحانه ، نعم والله ، تخيل هذا وتصوره جيدا ولا تتعجب ، فحياء الرب يغري ، وكرمه الذي لا حدود له يدفع الصالح والطالح إلى السؤال ، ويهيج البار والفاجر إلى رفع اليد وبسط الكف ، وهذا ورب السماء والأرض ليس كلامي ، وإنما هو نفحة من نفحات شيخ الإسلام ابن القيم نور الله تعالى قبره ، ورفع قدره ، وأعلى في الجنة درجته ، حيث يقول– وفي قوله للنفوس صلاح وللأبدان شفاء – : (**ومما يغرى النفوس بالدعاء : حياء الرب تعالى من عبده ، فذاك نوع آخر لا تدركه الأفهام ولا تكيفه العقول ، فإنه حياء كرم وبر ، وجود وجلال ، فإنه تبارك وتعالى حي كريم ، يستحى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا ، ويستحى أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام ، وكان يحيي بن معاذ يقول : سبحان الله ! يذنب العبد ويستحى هو**)[2] ، يا الله سبحانك ، بالله يا أخي الحبيب : اقرأ هذا الكلام مرة بعد مرة ، وأعد القراءة فإن ربك لا محالة سيفتح لك من المعاني ما يعينك على فهم تلك المقامات وإدراك هذه المنازل ، وقف وأنت تقرأ أمام قوله : إنه حياء كرم وبر ، وجود وجلال ، فهو يجيب قبل أن نسأل : وهل يستحى

---

(1) صفة الصفوة جـ 4 صـ 66 . ابن الجوزى .
(2) مدارج السالكين جـ 2 . صـ 272 .

الرب جل وعلا وما نوع هذا الحياء ؟ ويا له من رباني أنار الله تعالى بصره وهدى بصيرته ، فألهمه الجواب قبل أن نطرح السؤال ، إنه حياء الكريم يستحى أن يرد يدا مدت إليه ، أو أن يخيب رجاء عبد تعلق رجاؤه به ، ثم قف مرة أخرى عند قول يحي بن معاذ : سبحان من يذنب عبده ويستحى هو ، ولله در يحي وإخوان يحي من الربانيين الذين صفت قلوبهم وسمت أرواحهم فألهمهم ربهم الحكمة تجرى على ألسنتهم وتفيض من قلوبهم ، سبحان من يذنب عبده ويستحى هو ، فيارب أنا أحق بالحياء فأنا رب الذنب وصاحبه ، أنا المذنب بالليل المسيئ بالنهار ، والمفرط في جنبك على مدار اليوم والليلة ، أفأذنب أنا وتستحي أنت ؟ سبحانك عز جاهك وعظم سلطانك ، وجلت حكمتك ، أدنس بالذنب عرضي وألطخ بالفاحشة ثوبي ، وأسود بالمعصية صحيفتي ، ثم .... ثم تستحي أنت ؟ يا مولاي وسيدي ، يا ولي نعمتي إن لطفك لا حدود له ، وكرمك لا ينتهي ، وعطاؤك لا ساحل له ، وحياؤك لا سقف له ، تستحي منى وأنا أحق بالحياء منك ؟ تمن على بالإجابة على ما كان منى من جهل ؟ وتتحبب إلى بالنعم وأنا المسيء الذي يبارزك بالمعاصي ؟ وتتفضل على بأنواع الهبات وأشكال العطايا وشري إليك صاعد على الدوام لا يتوقف ؟ يا قلة حيائي منك أيها الملك ، أنا المخلوق وأنت الخالق ، مني الذنب ومنك العفو ، منى الإساءة ومنك الصفح ، فأنا بظلمي وجهلي أهل المعصية ، وأنت بكرمك وجودك وحكمتك وحيائك أهل المغفرة ، فلا تعاملني بما أنا أهله ، ولكن بما أنت أهله ، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة لا إله إلا أنت .

إن حياء الرب يغرى بالدعاء ، وقربه يثير في المسلم الشوق إلى رفع اليد وبسط الكف ، وأنت عندما تدعو ، فإنما تدعو قريبا ، وعندما تسأل فإنما تسأل مجيبا ، وصف نفسه بأنه قريب وضمن لك مع السؤال الجواب ، وعند النداء العطاء ، فإذا أعرض عنك مخلوق فدعه ، وتوجه إلى الخالق ، وإذا أغلق بشر بابه دونك ، فثم رب البشر ، بابه مفتوح لا يغلق آناء الليل وأطراف النهار ، فلا حارس عليه ولا حاجب ، وهو القائل سبحانه ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى

قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:186] ، وعند تفسيره لهذه الآية يرسم سيد رحمه الله تعالى لوحة فريدة بقلمه ، ويصورها بريشته ، ويجسد المعاني القرآنية لتصير حية تتحرك في تناسق بديع وتجانس عجيب فانظر ماذا يقول : (**أية رقة ؟ وأي انعطاف ؟ وأية شفافية ؟ وأي إيناس ؟ وفي كل لفظ في التعبير في الآية كلها تلك النداوة الحبيبة ... "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان " إضافة العباد إليه والرد المباشر عليهم منه ولم يقل : فقل لهم : إني قريب ، إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال " قريب " ولم يقل : أسمع الدعاء ، وإنما يعجل بإجابة الدعاء " أجيب دعوة الداعي إذا دعان " إنها آية عجيبة ، آية تسكب في قلب المؤمن النداوة الحلوة والود المؤنس والرضى المطمئن ، والثقة واليقين ، ويعيش منها المؤمن في جناب رضي وقربى ندية ، وملاذ أمين وقرار مكين**) [(1)] .

ألا تشارك سيدا رحمه الله رأيه في أنها آية عجيبة ؟ إنها والله كذلك ، وصدق سيد ، والآن أخي أعد قراءة هذه الآية ، وعش معها بعقلك ، وافتح لمعانيها قلبك ، وحلق معها في آفاق من الندى والرضى ، وسماوات من الإيمان والإحسان ، فذلك مقامك ، وهنالك أيها الحبيب مكانك ، ولم لا ؟وأنت تلميذ سيد ، ومن إخوان سيد ، على الدرب تسير وفي ذات الطريق تمضي وتصل الليل بالنهار ، وتستمد من سيرته الثبات ، ومن نفحاته اليقين ، حتى تدرك على الدرب إحدى الحسنيين : إما أهازيج النصر ، أو ترانيم الشهادة ، ويومها يفرح المؤمنون ، ويهنأ بالنصر الموحدون ، ويخسأ الشيطان وجند الشيطان وحزب الشيطان.

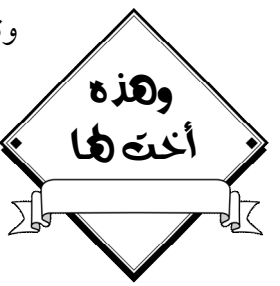

وتتوالى الآيات ، وتتواصل العطايا والهبات ، تمطر الروح بالنفحات ، وتملأ القلب باليقين والرضا والسلام والسكينة ، وهذا شأن القرآن الكريم أخي في كل وقت ، آياته جديدة وروحه وثابة ، ومعانية بحور بلا شطآن ، وعطاؤه بلا حدود ، وإذا كنا قد وقفنا مع آية سبقت ، فهذه أخت لها لا يسعنا إلا أن نقف أمامها ، نقلب الطرف فيها ، ونبلل الروح بنداها ، ونحي القلب

(1) في ظلال القرآن . جـ1 صـ 173.

الذي ران عليه الذنب وأحاطت به خطاياه بجميل معانيها ، فاسمع واقرأ وتدبر ، فأنت في روضة الدعاء ، أمام بحر زاخر ، وروض أنف ، وسماء لا تطال ، فيها من الأعاجيب كثير ، ومن الدواء والشفاء ما يكفى ويشفى ، ويسمن ويغنى ، فاقرأ قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:60] نعم أخي اقرأ وسأقرأ معك ، فأنا أشعر بها غضة طرية كأنها الآن نزلت ، وكأني لم أقرأها قبل اليوم ، أما عند الحديث عن معانيها وعطاياها فأدع سيدا رحمه الله تعالى يتكلم فهو أفصح منى لسانا ، وأزكى نفسا وأبر قلبا ، وأوسع علما ، وأعمق فهما وأعظم فقها ، وإذا تكلم سيد ، فليسمع الكل ولينصتوا ، فإنه لا محالة آت بخير الكلام وطيب الثمار ، يقول رحمه الله : (**والتوجه إلى الله بالعبادة ، ودعاؤه ، والتضرع إليه مما يشفى الصدور من الكبر الذي تنتفخ به ، فيدعوها إلى الجدال في آيات الله بغير حجة ولا برهان ، والله سبحانه يفتح لنا أبوابه لنتوجه إليه ، وندعوه ، ويعلق لنا ما كتبه على نفسه من الاستجابة لمن يدعوه ، وينذر الذين يستكبرون عن عبادته بما ينتظرهم من ذل وتنكيس في النار**) [1].

وأمام تلك اللوحة التى رسمها سيد نتوقف ، نتوقف لنتأمل ونتعظ ، ثم نرفع الأيدي سائلين المولى الذي يغضب على من لا يسأله ، **يدفعنا إلى السؤال خوف ورجاء** :

أما الخوف فمن الكبر ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:60] فالذي لا يرفع يده ويسأل ربه أحد **رجلين** :

الأول : غافل ، فهو كالأنعام بل أضل .

والثاني : متكبر يستنكف أن يمد يده لمولاه.

وكلا الرجلين جزاؤه جهنم ، يساق إليها مذموما مخذولا ، أما أنت أيها الحبيب فلست غافلا : فالغفلة صفة القاعدين الذين لا يصلحون دنيا ولا ينصرون دينا ، ولست كذلك متكبرا ، فالكبر لا يليق بك وأنت ابن دعوة تطلب النصر بالفقر ، وترجو العزة بالذل ، الفقر لله والذل للخالق لا للمخلوق. وأما الرجاء أيها الحبيب ،

---

(1) نفس المصدر جـ 5 صـ 3091 .

فهو الطمع في الأبواب التى لا تغلق ، والرحمة التى وسعت كل شيء ، والفضل الذي يعم الخلق جميعا ، المؤمن والكافر ، البار والفاجر ، والصالح والطالح ، وحسبك أن تقرأ : ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ثم تستحضر ما ذكره الإمام القشيرى في لطائفه وهو يدندن حول هذه الآية قائلا : ويقال : ادعوني بالسؤال. استجب لكم بالنوال والإفضال ، ويقال : ادعوني بالتنصل ، استجب لكم بالتفضل [1] .

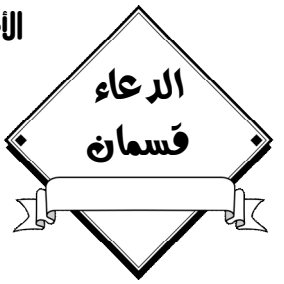

الأول : دعاء المسألة .

والثاني : دعاء العبادة.

وهذا التقسيم ليس وليد ذهني ولا ثمرة فكرى ، وإنما يأتيك به شيخ الإسلام ابن القيم رحمه الله وهو يأبي دائما إلا أن يتحفنا بمعانيه ، وينفحنا بخواطره التي هو في الأغلب لم يسبق إليها ، بل كان دائما هو السابق وله الفضل على اللاحق ، وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء يقول رحمه الله شارحا المعنى المراد بكل قسم من أقسام الدعاء : (**ودعاء المسألة هو : طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه ، وكل من يملك الضرر والنفع فإنه المعبود بحق . أما دعاء العبادة فهو الذي يتضمن الثناء على الله بما هو أهله،ويكون مصحوبا بالخوف والرجاء**) [2].

نحن إذن أيها الحبيب في الدعاء أمام روضتين لا واحدة ، فلا يضرك بأيها نزلت ، وعلى أي منها حللت وتقلبت : روضة الطلب ، تسأل فيها ما تشاء ، وتطلب ما تحب ، والكريم منك قريب ، ولقلبك طبيب ، ولدعائك سميع مجيب ، يكشف الضر ، ويمنح العافية ، ويجود بالمعروف ، ويتفضل بالإنعام.

ثم روضة الثناء ، تحمد فيها مولاك ، وتثنى على ربك فهو أهل الثناء والمجد ، وأهل أن يشكر فلا يكفر ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يطاع فلا يعصى.

هاتان أيها الحبيب روضتان للدعاء ، لن يضرك أبداً بأيها نزلت ، وحططت رحالك وتريضت ، ولكن دعنى أهمس في أذنك ، وأنت من الرواحل التى تحمل القوم ، وتجر

---

(1) لطائف الإشارات . جـ 3 صـ 313 . ط الهيئة المصرية للكتاب .

(2) التفسير القيم . صـ 243 .

الخلق إلى الإصلاح جرا ، وتأطرهم على الحق أطرا ، دعنى أهمس في أذنك : عليك بأعلى المنزلتين وأزكى الروضتين وأحب القسمين إلى ربك ، وهو الثاني ، فاشغل نفسك بالثناء يمدك مولاك بما تشاء ، ويجزل لك العطاء ، وأكثر من التسبيح والتنزيه والحمد والتمجيد ، يمنحك ما تطلب ، ويعطيك ما ترغب ، وتذكر دائما ما حكاه لك كعب الأحبار حيث يقول : إنا نجد في كتاب ربنا المنزل على أنبيائه : إن الله تبارك وتعالى يقول : من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيه فوق ما أعطى السائلين[1] .

ونعيش الآن أخي مع جملة أسباب ، تساعد على فتح الأبواب ، أسباب تعجل القبول ، وتعين أصحاب الأيدي الممدودة ، والأكف المتضرعة على الوصول ، وهي وقفة مهمة لا بد منها ، ولا يجدر بنا ونحن في روضة الدعاء أن نتجاوزها حتى نعلم ونتعلم ، ونذكر ونذكر ببعض الآداب المعينة على رفع الحجاب ، وجملة من الأسباب تساعد على فتح الأبواب ، لينطلق الدعاء دون حاجز فيخترق السبع الطباق ثم يصل إلى العرش ، في الوقت الذي يدور صاحبه فيه على الأرض أو يتقلب على الفرش.

هذا أول أدب من آداب الدعاء، وأول ريشة تركب في جناحه ، أن تتخير الوقت ، وتغتنم أوقاتا بعينها ، فإذا كان الدعاء مطلوبا في كل حين ، وعلى آية حال ، فإن للقبول أوقاتا هو فيها أرجى ، وهي به أنسب وأليق ، فيوم الجمعة ووقت السحر ، وعند نزول المطر ، وفي يوم عرفة ، ورمضان وليلة القدر ، إلى غيرها من الأوقات المرطبة بالنفحات ، والمحملة بالخيرات ، وأوصى نفسي وأوصيك أيها الحبيب بوقت السحر ، فوقت السحر دواء كافي ، وبلسم شافي ، غال ثمنه ، مرتفع سعره ، قليل طلابه ، كثير خيره ، ظاهر فضله ، وإنما أغلاه ورفع سعره نزول الملك فيه ، نزولا يليق بجلاله ، ليعرض فضله ،

---

(1) تنبيه الغافلين . صـ 229 . الإمام السمرقندى .

وينشر رحمته ، ويقول – كما في صحيح مسلم وسنن الترمذي – : أنا الملك . أنا الملك . من ذا يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر ، ولأجل هذا كان الصالحون يضنون بهذا الوقت أن يضيع في النوم ، أو يهدر في اللهو ، وتأمل حال هذا العبد الصالح ، ثم اضرب كفا بأخرى من التعجب ، وقل : سبحانك يا من خلقت هذا وأضرابه من الربانيين الذين برهنوا للدنيا على عظمة الإسلام وريادة المسلمين ، بإخلاص النية وصدق الهمة وإحسان العمل ، فقد روى أن طاووسا جاء في السحر يطلب رجلا ، فقالوا : هو نائم ، فقال ما كنت أرى أن أحدا ينام في السحر [1]. سبحان الله !! ما كنت أرى أن أحدا ينام في السحر ، نعم أخي ، وكيف ينام عاقل في وقت يتجلى فيه المليك على عباده ، ويتنزل عليهم برحماته ، ويفيض عليهم برضوانه ؟ وهل تذكر هذه المرأة أخي ؟ هل تذكر تلك الربانية التى قيل لها : ألا تنامين ؟ – وقد أكثرت من القيام – فقالت : وكيف أنام وحبيبي لا تأخذه سنة ولا نوم ؟ يا الله ما أروع هذا المعنى ، وما أعظم هذه المنزلة ، نحن هنا أمام قمة عالية ، وأفق لا يكاد يطال ، لا يتثنى لآحاد الناس أن يسبح فيه أو يرتقيه ، فهؤلاء تلاميذ مائدة القرآن ، وطلاب مدرسة الحبيب ﷺ صاروا من بعده أئمة الدنيا ، فبهداهم اقتدى ، ورحم الله الشافعي حيث قال.

أتهزأ بالدعاء وتزدريه وما تـدرى بما صنــع الدعاء
سهام الليل لا تخطـى ولكن لها أمد وللأمد انقضاء

إن ربك أدنى إليك مما تتصور ، وأقرب إليك – كما يقال – من حبل الوريد ، فإذا جلست للدعاء وبسطت كف الرجاء فكن على يقين أن ربك قريب ، يسمع دعاءك ويرى مكانك ، فاحذر الاعتداء في الدعاء ، واخفض صوتك ، حتى تشعر براحة القرب ، ولذة الوصل وحلاوة الدعاء ، وإذا كانت الحكمة ضالة المؤمن فخذها ولو من أعرابي يحسن السؤال ليظفر بحسن الجواب وفصل الخطاب ، فقد ذكر الإمام ابن كثير في تفسيره أن أعرابيا قال : يا

---

(1) حلية الأولياء . جـ 4 صـ 6 .

رسول الله : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ، فسكت النبي ﷺ . فأنزل الله تعالى قوله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ [البقرة:186] فربك أخي قريب ، ومولاك ليس بينه وبينك مسافة ، وكلما أخفيت الدعاء ، كلما تذوقت معنى القرب ، وطويت في نفسك مراحل البعد ، وهذا سلوك الأنبياء ، وما خبر زكريا عليه السلام ببعيد ، وبدايات سورة مريم لها حلاوة وعليها طلاوة ، وسأتركها تحدثك عن نفسها ، يقول تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم:2،3] أكمل قراءة الآيات وعش معها محلقا ، ثم انظر ماذا يقول فيها سيد رحمه الله تعالى : (**إنه يناجي ربه بعيدا عن عيون الناس ، بعيدا عن أسماعهم ، في عزلة يخلص فيها لربه ، ويكشف له عما يثقل كاهله ، ويكرب صدره ، ويناديه في قرب واتصال ، " رب " بلا واسطة حتى ولا حرف نداء ، وإن ربه ليسمع ويرى من غير دعاء ولا نداء ، ولكن المكروب يستريح إلى البث ، ويحتاج إلى الشكوى ، والله الرحيم بعباده يعرف ذلك من فطرة البشر، فيستحب لهم أن يدعوه وأن يبثوه ما تضيق به صدورهم ... " وقال ربكم ادعوني أستجب لكم " ليريحوا أعصابهم من العبء المرهق ، ولتطمئن قلوبهم إلى أنهم قد عهدوا بأعبائهم إلى هو أقوى وأقدر ، وليستشعروا صلتهم بالجناب الذي لا يضام من يلجأ إليه ، ولا يخيب من يتوكل عليه**) [(1)].

ألا تلاحظ أخي ، أننا مع سيد في ظلال وارفة ، وعيون جارية ؟ إنه يحلق بنا في آفاق من الربانية عال لا يدركه إلا أصحاب القلوب الحية والنفوس التواقة ، فأخفض عند الدعاء صوتك ، وناد في خفاء ربك كما فعل العبد الصالح زكريا ، واعلم أن في إخفاء الدعاء **فوائد منها إنه** :

1- للإخلاص أدعى .
2- وفي الخشوع أبلغ.
3- وإلى الأدب أقرب .
4- وفي اليقين أعظم ، لأن صاحبه قد وقر في صدره أن ربه قريب يسمعه.

---

(1) في ظلال القرآن . جـ 4 صـ 2302 . سابق .

أخي هل رأيت السائل كيف يبدو ؟ هل رأيت هيئته ؟ إن يده ممدودة ، وكل عضو في جسده يقول : أنا الفقير ، ولذلك لا تخطؤه العين ، ولا يجاوزه البصر ، ونحن أخي أمام الخالق ذلك الرجل ، فقراء نتسول الفضل من صاحب الفضل ، ونرجو النوال من صاحب الأفضال ، نعم أخي كلنا ذلك الفقير الذي وصفه الإمام ابن القيم بقوله : (**الفقير هو الذي حاجاته إلى الله بعدد أنفاسه أو أكثر ، فالعبد له في كل نفس ولحظة وطرفة عين حوائج إلى الله لا يشعر بكثير منها ، فأفقر الناس إلى الله من شعر بهذه الحاجات ، وطلبها من معدنها بطريقها ، إن هذا الفقر الذي يجلل الإنسان في كل لحظة ، ويملك عليه كل خلجة من خلجات نفسه ، هو أفضل ما تقرب به العبد لربه ، وخير ما توسل به المخلوق لخالقه ، يقول أبو حفص : أحسن ما توسل به العبد إلى مولاه : دوام الفقر إليه على جميع الأحوال ، وملازمة السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال**) [1] ، يا الله على الحكمة حين تفيض سلسبيلا على ألسنة الفقراء ، إنهم والله قوم أظهروا لله فقرهم ، وشكوا إلى مولاهم ضعفهم ، فأغناهم من فضله ، وحباهم من نعمه ، ودفع عنهم كل مكروه وسوء ، إنها إذن ثلاثة أشياء يحتاج إليها كل سائل ، **ويفتقر إليها كل طالب** :

1 – إظهار الفقر .

2 – التزام السنة.

3 – أكل الحلال .

فإذا تمكن من قلبك معنى الفقر ، واستشعر كل عضو فيك حاجته إلى مولاه ، فمد يدك كحال السائل ، واجلس كما يجلس المسكين ، واسأل سؤال الخاشع الذليل ، وعندها ستأتيك النفحات ، وتتنزل عليك الرحمات وتأمل هذا الخبر : ذكر أن أبا سليمان الداراني رحمه الله تعالى قال : كنت ليلة في المحراب أدعو ويداي ممدودتان ،

---

(1) طريق الهجرتين . صـ 46 . مصدر سابق .

فغلبني البرد ، فضممت إحداهما وبقيت الأخرى مبوسطة أدعو بها ، وغلبتني عيني فنمت ، فهتف بي هاتف : يا أبا سليمان ، قد وضعنا في هذه ما أصابها ، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها ، قال : فآليت على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان حرا كان أو بردا [1].

ثم اطرق الباب أخي ، لكن بكف الذل ، وأصابع المسكنة ، واخضع لربك واخشع لمولاك وفتش في قلبك عن كل ذرة من كبر فاغسلها بماء الذل ، وطيبها برحيق الفقر وعبير المسكنة والانكسار للواحد القهار ، فإنك إن فعلت ، نظر إليك مولاك ، ومن نظر إليه مولاه رحم ضعفه وجبر كسره ، وأغنى فقره ، وقضى حاجته ، وسد فاقته ، وأعطاه سؤاله ، هذا هو طريقك أيها الحبيب ، ولا طريق غيره ، وإلا كان نداؤك صرخة في واد ، ودعاؤك نفخة في رماد لا يحقق غاية ، ولا يمضى إلى نهاية ، وما أجمل ما يقوله ابن القيم في وصف الطريق إلى القبول :(**فمن أراد الله به خيرا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجوء إلى الله تعالى ، والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده ، فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين ، لا يمكنه أن يسير إلا بهما ، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه**)[2].

إن أعظم آداب الدعاء أيها الفقير ، أن تري ربك كل شيء وألا ترى نفسك أصلا ، إلا بجهلها وفقرها وتمردها وعصيانها ، فنفسك إذن هي العقبة الكؤود بينك وبين أسباب الإجابة ، فأسقط هذه العقبة ، تفتح لك السماء أبوابها ، وتمدك الأرض بخيراتها ، ويعطيك مولاك مما سألت ومما لم تسأل ، ولله در ابن عطاء الله حيث يقول في المحفوظ من حكمه : ما الشأن وجود الطلب ، وإنما الشأن أن ترزق حسن الأدب ، الله أكبر ، أظن أخي الحبيب أنه قد آن لنا أن ندرك أن حسن الأدب هو مفتاح القبول عند الطلب ،

---

(1) البداية والنهاية . جـ5 صـ 787 . ابن كثير .

(2) الوابل الصيب ، صـ 14 . دار الكتاب العربي .

ولكن تعالى نكرر هذا القول ، ونعيد قراءة هذه الجملة : إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب ، أجرها على لسانك ، وأدرها في عقلك ، وتدبرها بقلبك ، وحاول أن تقبض بيدك على ما طاب من معانيها ، وسأقرب لك المعنى ، فمن حسن الأدب أن تمد يدك كحال السائل الفقير ، وأن تخشع نفسك كهيئة الطالب الذليل ، وأن ينكسر قلبك انكسار المساكين على أبواب الأغنياء كحال هذا العبد الصالح الذي قال عنه ابن رجب رحمه الله : وقد كان بعض الخائفين يجلس بالليل ساكنا مطرقا برأسه ، ويمد يديه كحال السائل ، فتأمل هذا المشهد أخي ، إنه يقضى الليل على حال واحدة ، فيجلس في سكون وصمت ، رأسه إلى الأرض ، ويده نحو السماء ، لا يسأل شيئا بلسانه ، وحاله تنطق بكل شيء ، حبس الخوف لسانه ، وأغلق الحياء فمه ، ولكن كل جارحة من جوارحه تصرخ قائلة : مولاي ، أنا الفقير إليك .

وعليك أخي الحبيب قبل أن تطرق الباب ، أن تقدم بين يدي ذلك إقرارا بالذنب ، واعترافا مفصلا بالتقصير ، واسترجع أحداث يومك وليلتك ، وأعد النظر في تاريخك القريب والبعيد ، كل هذا بينك وبين نفسك ، ثم اعترف : كم فريضة ضيعتها ؟ وكم نافلة نمت عنها ؟ كم من خير دعاك مولاك لتسارع فيه فقعدت عنه ، وفي المقابل أخي : كم من ذنب فعلته ؟ وكم من إثم ركبته ؟ وكم من مخالفة دعاك مولاك للابتعاد عنها فسارعت فيها ؟ أظن أن مثلي ومثلك لو فتح هذا الباب فلن يغلق ، فلن تستطيع العد ولا الحصر ، فلا أقل من الاعتراف بالذنب والإقرار بالعيب ، ونسبة الشر إلى النفس والخير إلى الرب ، فلعلنا ندرك بذلك ما خسرناه بتقصيرنا في حق الله وتفريطنا في جنبه ، واقرأ معي هذا الخبر : يقول الإمام الأوزاعي رحمه الله : خرج الناس يستسقون ، وكان فيهم بلال بن سعد – من خيار التابعين – فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا معشر من حضر ، ألستم مقرين بالإساءة ؟ قالوا : بلى ، فقال : اللهم إنا سمعناك تقول : ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن

سَبِيلٍ ﴾ [التوبة:91]وقد أقررنا بالإساءة ، فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا ؟ اللهم اغفر لنا وارحمنا واسقنا ، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا [1].

وإنه لمشهد معبر ، ولوحة مؤثرة ، فتأمل سؤاله العبقري : ألستم مقرين بالإساءة ؟ إنه سؤال ملهم ، يحدد الطريق التي لا طريق سواها نحو أبواب السماء ، وبركات الأرض ، فاللهم رب السموات والأرض إنا مقرون بذنوبنا ، معترفون بتقصيرنا ، فاجبر إله العالمين كسرنا ، وارحم ضعفنا وتقصيرنا ، فلا رب لنا سواك ، ولا إله لنا غيرك ، وطمعنا في رحمتك بلا نهاية ، وحسن ظننا بك لا حدود له ، فأدخل عظيم ذنوبنا في عظيم عفوك يا كريم.

واعلم أيها الحبيب أن أبواب السماء لا يسدها ، وآفاق الرجاء لا يحجبها مثل الذنب ، فالذنوب في شجار دائم ، ومعركة أبدية مع الإجابة ، معركة ميدانها الأفق ، وساحتها عنان السماء ، تنزل الإجابة فيستقبلها الذنب ويبدأ الصراع ، فإذا لبست ثياب الفقر ، وأحسست بشدة الحاجة إلى مولاك ، فأحدث قبل الدعاء توبة بشروطها ، ولا تقل – بغفلة – مما أتوب ؟ فتقصيرنا في جنب الله واضح ، وقعودنا عن الطاعة وأوامر المولى فاضح ، وتجرؤنا على المعصية صارخ وظاهر ، وكل نفس يدخل الصدر أو يخرج شاهد على ذنب لنا أو خطيئة ، وجوارحنا كالرحى تطحن المعاصي ليل نهار دون كلل أو ملل ، ثم تسأل أيها الحبيب : مما أتوب ؟ إن التوبة لازمة لك مع كل نفس ، ومع التوبة يأتي الفرج ، وسل سفيان الثوري يأتيك بالخبر ، ويتحفك بهذه اللوحة : (**بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين ، حتى أكلوا الميتة من المزابل ، وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال يبكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم : لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم ، وتبلغ أيديكم عنان السماء ، وتكل ألسنتكم من الدعاء ، فإني لا أجيب لكم داعيا ، ولا أرحم لكم باكيا ، حتى تردوا المظالم إلى أهلها ، ففعلوا فمطروا من يومهم**) .

---

(1) الأذكار للإمام النووي صـ 612 .

فإذا كانت المظالم تمنع الإجابة ، فإن كل واحد من أخواتها يفعل مثل ما تفعل ، فاللقمة الحرام تمنع الإجابة ، والنظرة الحرام كذلك ، والكلمة الخبيثة تمنع الإجابة ، والظن السيئ كذلك ، وهكذا دواليك ، فاتعظ ولا تكن من الغافلين.

أيها الأخ الحبيب ، يا رفيق الرحلة ، وأنيس الدرب ، وشريك المحنة والمنحة ، إن العمل الصالح يرفع الدعاء ، ويحمله إلى عنان السماء ، حتى يصل إلى العرش ، فلا يزال يطوف به طواف الموحدين حول البيت ، حتى إذا وجد صاحبه في بلاء فيدفعه ، أو في خير فينفعه ، فإذا وفقت لطاعة ، أو رزقك مولاك عملا صالحا ، فارفع بعده يدك وسل مولاك من فضله العظيم ، وخيره العميم ، ورحمته الواسعة ، ونعمته السابغة ، فإن أبواب السماء مفتوحة ، والمولى الكريم إذا استعمل عبدا في طاعة ، قبل منه الدعاء في ذات الساعة ، وكان ما قدمه من عمل شفيعا له إذا عزت الشفاعة ، وتأمل هذا الخبر العجيب ، وأعلم أن الله تعالى لا يضيع إحسان المحسنين روى عن ابن عباس ﷺ قال : أتى سائل امرأة وفي فمها لقمة ، فأخرجت اللقمة وناولتها للسائل فلم تلبث أن رزقت غلاما ، فلما ترعرع دخل خباءها ذئب فاحتمل ولدها في فمه ، فخرجت تعدو في أثر الذئب وهي تقول : يا رب ابني ، ابني ، فأمر الله تعالى ملكا أن يلحق بالذئب ويأخذ الصبي من فمه ، ويقول لأمه : الله يقرئك السلام ويقول لك : لقمة بلقمة [1] .

صدق أخي أو لا تصدق ، ولكن المعنى واضح ومقرر : أخرجت اللقمة من فمها فوضعتها في فم السائل ، فأخرج الله ولدها من فم الذئب ووضعه في حجرها جزاء وفاقا ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟

قدم نجد : إن أي القرآن حق ، ودلائل صدق على ما نقول ، وقد جاءك نبأ يونس عليه السلام عندما سقط في بطن الحوت ، واحتوته ظلمات ثلاث : ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت ، فماذا كان من أمره ؟ سأدع القرآن يحكي ، يقول الله تعالى :

---

(1) في ملكوت الله . صـ 78 . عبد المقصود سالم . مطبعة الشمرلى .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:87]، فلم يتأخر الرد ، وجاء في وقته ، ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنبياء:88]، أتدرى أيها الحبيب لماذا جاءه الرد وأسرع إليه الجواب ؟ إن القرآن يتكفل بالجواب ، يقول مولانا عز وجل : ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ [الصافات:143،144] ، لقد قدم لنفسه في الرخاء عملا نفعه يوم تقلبت الأمور ، وتبدلت الأحوال ، وحلت الشدة محل الرخاء ، فلولا أنه قدم لنفسه لظل في هذا الضيق يعيش إلى يوم يبعثون ، واسمع نصائح القوم فإنها من مشكاة الوحي تخرج ومن حول العرش تنزل ، فتأتى معها بالروح والريحان والعافية والشفاء ، فقد أخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك قال: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ، فإن يونس كان عبدا صالحا ذاكرا لله ، فلما وضع في بطن الحوت قال الله تعالى : ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ . تأمل هذا أيها الحبيب ثم قارنه بما بعده : وإن فرعون كان عبدا طاغيا ناسيا لذكر الله فلما أدركه الغرق قال ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس:90] ، فقيل له : ﴿ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [يونس:91] ، ووالله إن في ذلك لعبرة ، ولكن أين الذين يعتبرون ؟ فابعث أخي بين يدي نجواك عملا صالحا يمهد للدعاء طريقه ، ويفتح له الأبواب فذلك دأب الصالحين وسنة النبيين ، وأنت وارث علم النبوة ، ورائد إلى الإصلاح ، فخذ بأسباب الفلاح وقدم لنفسك خيرا .

وأختم هذه الجملة من الآداب أيها الحبيب ، بسيد الآداب كلها ، فحذار ثم حذار أن تغفل عنه أو تنساه ، أتدرى ما هو ؟ إنه الأدب الذي يسبق الدعاء ويلحقه ، ويأتى قبله ولا بد كذلك يأتى بعده ، وأقصد : ذكر الله وشكره والثناء عليه ببعض ما هو أهله ، ومع الثناء على المولى وذكره وشكره لا بد من ذكر الحبيب ﷺ بالصلاة عليه

فإن الدعاء لا يجاوز رأسك حتى تصلي عليه ، وإلا فلم نفسك وحدها إن أخطأتك الإجابة أو تأخرت ، فعن فضالة بن عبيد الأوسي قال : سمع رسول الله ﷺ رجلا يدعو في صلاته لم يحمد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال : عجلت أيها المصلى ، ثم علمهم رسول الله ﷺ ، " وسمع رسول الله ﷺ رجلا يصلى فمجد الله وحمده وصلى على النبي ﷺ فقال ﷺ : ادع تجب وسل تعط[1] . فإياك أن تعجل ، وتمهل ثم تمهل ، ومجد ربك وصل على حبيبك ﷺ ثم ادع بعدها وأنت على يقين بالإجابة.

لقد أدرك سلفك والذين سبقوك بإحسان ما لهذا الأدب من تأثير في قبول الدعاء ، فراحوا يبعثون إليك الهدية بعد أختها ، ويرسلون لك الإشارة بعد الإشارة ، لتفهم منهم ، وتستقبل منهم ، يقول عمر ﷺ : إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك[2] ، فخذ بهذا الأدب ولا تتردد ، وتمسك به تسعد فإن الثناء خير من الدعاء ، ومن شغله الذكر عن المسألة نال ما لم ينله السائلون من الخير والأجر ، فما بالك إذا جمعت بين الحسنين ، فأثنيت ثم دعوت ، فتأدب أخي بهذه الآداب وانتظر بعدها " **أستجب لكم** " ولا تنس أخاك بدعوة هو أفقر الخلق إليها.

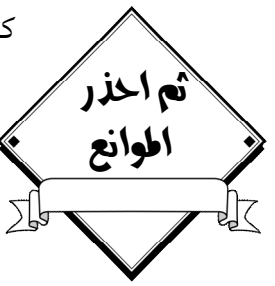

كلنا فقير ، وكلنا يمد يده ، يسأل ويطلب ، يدفعنا الأمل ويحدونا الرجاء ، أن نتعلم لنعلم ، وأن نعمل اليوم ما ينفعنا يوم الحصاد ، فعليك بالدعاء أخي ، فهو سلاحك ، وهو حصنك ودرعك ، واحذر في هذا المقام عدة موانع ،ترد الإجابة أحيانا أو تؤخرها ، ومصيبة أن تحرم الإجابة وعذاب أن تتأخر عنك ، وقد رصد الربانيون هذه الموانع ، وقدموها إليك لتتجنبها ما استطعت ، أو تتخطاها إن استطعت ، وهاأنذا أذكرك بها واحدة بعد الأخرى ، وتذكر دائما أن هدايا القوم أثمن من أن تلقى ، وأعظم من أن تهمل ، وإنك إن فعلت ، فلم نفسك وحدها ، وإن تأخر عنك الجواب فلا تسل لما تأخر ، ولكن تذكر " **قل هو من عند أنفسكم** " .

---

(1) أبو داود والنسائي ، حديث حسن .

(2) رواه الترمذي .

إن الدعاء أيها الحبيب شفاء ، فهل استطعت أن تدرك ذلك ؟ أم أنك لا زلت تستثقله ؟ إنها والله حقيقة دينية ، وقاعدة شرعية ، وتجربة بشرية ، فإفراغ الهم يترك القلب في سلام ، وبث الوجد يملأ الصدر سكينة ، وشرح الحاجة يعود على النفس بالصبر والرضا ، فإذا نزلت بساحتك الهموم ، وأحاطت بك النوازل ، ورماك الدهر بالدواهي ، وعجز الظهر ، وضاق الصدر ، وتألم القلب وباتت النفس على بعد خطوات من اليأس والاستسلام ، فقط جرب أن تمد يدك ، وتفتح قلبك ، وأن تبث لمولاك شكواك ، فالشكوى راحة ، وبث الهموم باب إلى السلام والسكينة ، فإذا شكوت استرحت ، وأطفأت نارا توشك أن تحرق ، وأوقفت طوفانا يوشك أن يغرق ، وهذا لا شك ربح عظيم ، ثم يأتيك الجواب بعدها زيادة من مولاك ونعمة ، وتفضلا منه وكرما ، فلا تتعجل ، فإنه والله لمن العجب أن تتعجل الجواب بعد أن فزت بالراحة وظفرت بالسكينة ، ورجعت بعد الدعاء بسلامة الصدر ، وسكينة النفس ، وماذا يريد المرء من دنياه بعد هذا ؟ إنك مع الدعاء من الفائزين . والقسمة معروفة ، فقد أخبرك حبيبك ﷺ أن لك بالدعاء **واحدة من ثلاث** :

1 – الجواب في الحال .

2 – دفع بلاء لا تعلمه .

3 – الادخار ليوم الحاجة.

أليست كلها مكاسب ؟ مع ما تقدم من راحة بالشكوى ، وسكينة بإفراغ الهم ، فلم العجلة التى تؤدي إلى اليأس ثم ... إلى ترك الدعاء ؟ يقول ابن القيم رحمه الله : (**لا تسأم الوقوف على الباب ولو طردت ، ولا تقطع الاعتذار ولو رددت ، فإن فتح الباب للمقبولين دونك ، فاهجم هجوم الكذابين ، وادخل دخول الطفيلية ، وابسط كف "وتصدق علينا "** [1]) ، يا الله ، ما أروع هذا الكلام ، لا تسأم الوقوف وإن طال بك المقام ، ولا تمل من الطرق وإن كلت يدك ، فإن من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له ،

---

(1) الفوائد . صـ 51 .

ففرج المولى قريب وبابه واسع ، وعطاؤه دائم ، فلا تتعجل ، وإن كان الإلحاح مع الخلق سوء أدب فإنه مع الخالق عين الأدب ، فاطرق الباب وحاول الدخول ، وتملق ربك ، واهجم مع من دخل وإن لم تدع ، وارفع كفك وأرق ماء وجهك ، واسأل مولاك أن يتصدق عليك ، فإن ربك يحب ذلك ، ولن يمل حتى تمل ، واحذر أن تمل أنت أو تغضب ، وكن كمورق العجلى الذي قال عن نفسه : ما امتلأت غيظا قط ، ولقد سألت الله تعالى حاجة منذ عشرين سنة ، فما شفعني فيها ، وما سئمت الدعاء[1] ، فانظر أخي الحبيب ، عشرون سنة كاملة ، يطلب حويجة ، ويسأل مولاه شيئا ، لم يدركه ولم يمل الطلب ، عشرون سنة ، لم يتعجل ولم يغضب ، ولم يغادر الباب ، فاحذر أن تتعجل .

إن السائل أيها الحبيب ، متلبس بفقره ، مشغول بحاجته ، يدفعه ذله ، وتحركه فاقته ، عرف نفسه بفقرها ، وعرف ربه بغناه ، فهو يسأل مسألة الذليل ، خاشع النفس منكسر القلب ، مسكين الفؤاد ، والتكلف لا يناسبه هذه الحال ، ولا محل له في هذا الموطن ، فدع سجيتك تنطق ، واترك فطرتك تتوسل وتطلب ، ودع عنك التشدق والتفهيق والغلو والاعتداء وتأمل هذا الخبر : سمع عبد الله بن مغفل ابنا له يدعو ويقول : اللهم إني أسالك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها ، فقال له : يا بنى سل الله الجنة ، وعذ به من النار ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون قوم يعتدون في الدعاء والطهور[2] .

انظر أخي الحبيب : سل الله الجنة وعذ به من النار وكفى ، دون تكلف أو اعتداء ، هذا هو هدى الحبيب ﷺ وفقه أصحابه ، أخذه القوم بصدق وبلغوه بإخلاص ، فقام هذا الحواري يعلم ابنه ما تعلمه هو من أستاذه ، فكان أمينا في النقل مخلصا في النصح ، لقد سمع ولده يدعو ، ورأى في دعائه زيادة وتكلفا ، فعلمه كيف يدعو ، ولو بكلمات خفيفات ، لم تترك خيرا إلا تضمنته ، ولا شرا إلا أبعدته ، وماذا يريد العبد بعد ذلك ؟

---

(1) نزهة الفضلاء . صـ 398 .

(2) رواه أبو داود بسند صحيح .

هذا ومن التكلف أيا الحبيب : السجع في الدعاء ، وهو الكلام المقفى دون وزن ، فإذا خرج من القلب وجرى على اللسان ببساطة ويسر فلا حرج فيه ، أما أن ينشغل الإنسان باللفظ ، ويضع همه في القافية وموسيقاها فإن مقام الدعاء أرفع من هذا وأجل ، ولأجل هذا جاء النهى عن السجع على لسان بعض السلف ومنهم ابن عباس ﷺ ، الذي روى عنه أنه قال : وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه ، وإنى عهدت أصحاب رسول الله ﷺ لا يفعلونه ، وهذا هو الحق أخي ، وعليه مدار الأمر ، فالزم هدى النبي وصحبه وتذكر دائما هذه النصيحة : ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق والافتخار ، فدع التكلف ، واعلم أخي أن في أدعية القرآن الكريم ما يفي بحال كل سائل ، ويسد حاجة كل طالب ، وفي مأثور الدعاء عن خاتم الأنبياء ﷺ ما يغنى من فقر ويسمن من جوع ، وهو خير من أن يدعو الإنسان فيضر نفسه أو يدعو بما لا مصلحة فيه ، فليس كل سائل يحسن الطلب ، وما كل داع يجيد فن الدعاء.

إذا سأل إنسان أخا له حاجة ، فلن يفعل إلا وهو على يقين تام بقدرته على تلبية حاجته وتحقيق رغبته ، ولله المثل الأعلى ، فكيف يكون حال من يسأل مولاه وسيده وولى نعمته ؟ فإذا سألت ربك فسله وكلك يقين أنه يرى مكانك ، ويسمع كلامك ، ويحيط علما بحالك ، وكن كذلك على يقين بأن الإجابة أقرب إليك من حبل الوريد ، وأن فرجه أدنى إليك مما قد تتصور ، فادع أخي بهذا اليقين ، وأزح الشك بعيدا حتى لا يحول بينك وبين الإجابة ، واعلم أن الشك في حصول المطلوب وتحقق الرجاء ينتج عن أمرين ينبغي أن **تنزه مولاك عنهما** :

الأول : الشك في غناه.

الثاني : الشك في كرمه وجوده وبره .

وهذا لا يليق ، فنحن نتقلب في ملكه ، وننام ونستيقظ على إحسانه ولطفه ، فإذا دعوت فاجزم ، وإذا سألت فافعل وأنت على يقين تام بأن الفرج قريب ، واليسر

حاضر ، والفجر لا محالة قادم ، وهي وصية حبيبك ﷺ إذ يقول : لا يقل أحدكم إذا دعا : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ، وليعزم المسألة فإنه لا مستكره له [1] ، وصدق الحبيب أخي ، فربك لا يكون في ملكه إلا ما يشاء ، فاجزم في طلبك وأد وظيفتك ، وأبن فقرك ، وأظهر عظيم مسكنتك ، ودع ما تبقى لمولاك فإنه يفعل ما يشاء ، ولا راد لمشيئته ، إن الشك أيها الحبيب قد يأتيك أحيانا من قبل نفسك ، وما تعرفه عنها من قعود عن واجب ، أو تقصير في حق ، وهذا مدخل من مداخل الشيطان إليك ، فلا يمنعك ما تعرف من نفسك أن تمد يدك وأن تسأل مولاك ، واحذر أن تترك الدعاء لذنب وقعت فيه ، أو معصية سولتها نفسك أو زينها شيطانك ، واسمع سفيان بن عيينة رحمه الله يهمس في أذنك : لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه ، فإن الله تعالى أجاب دعاء شر الخلق إبليس اللعين ، إذ قال : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾ [الحجر:36،37] ، ما رأيك في هذه الوصية أخي ؟ إنها والله غاية في الحسن وآية في الوجاهة ، فمهما بلغ شرك فإبليس أشد شرا ، ومهما عظم ذنبك فذنب إبليس أعظم ، ومع ذلك فقد سأل النظرة وأجيب إليها .

إن أقصى ما يطلبه الشيطان منك أخي أن تتوقف عن الدعاء ، وأن تكف عن الطلب ، خوفا من ذنبك أو شكا في ربك ، فاحذر أن يظفر منك بهذا ، واعتصم بمولاك ، فقد ضمن لك الجواب بأفضل مما تطلب ، ولكن في الوقت الذي يحدده هو ، وبالشكل الذي يريده ، وما عليك إلا أن تدعو وأنت موقن بالإجابة.

إن أقصر طريق إلى الإجابة أيها الحبيب ، أن تدعو بلا ملل ، وأن تسأل بلا انقطاع ، فإذا حضر قلبك ،وانطلق لسانك ، فالزم مكانك ، ولا تغادر سجدتك ، وادع بما يفتح عليك مولاك ، وإياك إياك أن تضيع لحظة والحال كذلك ، فتتحسر عليها حيث لا تنفع الحسرة ، وتندم يوم لا ينفع الندم ، ولك في

(1) أخرجه الشيخان .

سيدك أسوة ، وفي حبيب قلبك ﷺ عبرة ، لقد شغله الثناء والدعاء يوم عرفة عن كل شيء حتى ذهل عن الطعام والشراب ، فكان من الطرائف أن ظن أصحابه أنه ﷺ صائم ، ولم يكن صائما ، ولكنه اكتفى بطعام الروح وشراب النفس من ذكر وثناء ودعاء ، تقول أم الفضل بنت الحارث : إن ناسا تماروا عندها يوم عرفة في صوم رسول الله ﷺ فقال بعضهم : هو صائم ، وقال بعضهم : ليس بصائم ، فأرسلت إليه بقدح من لبن وهو واقف على بعيره بعرفة فشرب[1] . الله أكبر ، تأمل أخي سلوك حبيبك المصطفى ﷺ ، إنه يغتنم مواسم الخيرات ، وأيام النفحات ، وساعات الإجابة ، وعلى رأسها يوم عرفة ، أفضل الأيام ، ساعاته معدودة ، ومدته محدودة ، فاحذر أن ينصرم منك دون أن تسأل ربك أن يرزقك خيره وأن يمنحك بره ، وكن بخيلا بثوانيه أن تمر ، وبدقائقه أن تتسرب من بين يديك فإن الحياة – كما قيل – دقائق وثوان – ، ثم اقرأ وتعجب مما يرويه أسامة بن زيد إذ يقول : كنت رديف رسول الله ﷺ بعرفات ، فرفع يديه يدعو ، فمالت به ناقته فسقط خطامها ، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى[2] بأبي أنت وأمي ونفسي يا رسول الله ، انظر أخي وتأمل ، واسبح بعقلك وتدبر بقلبك هذا الهدى النبوي الأكمل ، وإني استحلفك بالله أخي أن تعيد قراءة هذه الجملة : فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى ، يا الله ! لقد مد حبيبك يدا تتناول الخطام والأخرى لم تغادر مكانها تسأل وتلح في السؤال وتجزم في الطلب ، إنه مشهد يدفع المؤمن عمره ليرى مثله ، ووصف من أسامة من أعجب ما رأي الإنسان وسمع في الحرص على الدعاء ، واغتنام اللحظات ، ولكن لما العجب وهذا سيد الخلق ﷺ فكلامه سيد الكلام ومواقفه سيدة المواقف ، ومن أسامة إلى جابر لنتعلم ، ونتعظ ونسبح في رياض من الجمال تنعش الروح وترطب النفس ، يقول جابر رضي الله عنه : ثم ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة ، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس[3] ، وأظنك أخي

---

(1) متفق عليه .

(2) أخرجه النسائي والإمام أحمد .

(3) أخرجه أبو داود وابن ماجه .

ستقف لا محالة عند قوله : فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس ، وهذا من حقك ، فحبيبك ﷺ يدعو في هذا اليوم دون كلل ويسأل ربه باجتهاد دون ملل ، ويستفتح أبواب السماء بكل ما أوتى من قوة ، فهل آن لنا أن نعى الدرس وأن نستمر في الدعاء دون توقف ؟ إن من شروط القبول ألا تتوقف . فأين همتك أيها الحبيب ؟ .

هل رأيت أخي أو سمعت أن أحدا دخل دار ملك كريم يسأله حاجة ، وقلبه معلق بغيره ، أظن أن هذا لا يكون ، فكيف يليق بك أن تطرق باب مولاك ، وتجلس في حضرته ، يدك إليه ممدودة ، وقلبك في كل واد يسرح ، وفي بحار الهوى يسبح ، ونفسك خلف الزوجة والولد والمال تجرى وتلهث ؟ لا أيها الحبيب وألف لا بعدها ، هذا لا يليق بجلال مولاك ومقام سيدك وولى نعمتك ، ولا يليق بالأحرى بك وأنت الفقير الذي ظهر فقره ، والضعيف الذي بدا ضعفه فراح في كل حين يطلب النصر ويرجو القوة ، ويستمد العون ويسأل التمكين ، إن دعاء كهذا لن يجنى المرء من ورائه سوى إضاعة الوقت وربما يلحق بها الطرد والمقت فأحضر القلب قبل البدن ، والروح قبل الجسد ، فمولاك لا ينظر إلا لقلبك ، ولا يراقب إلا نفسك ، فإذا ما فتح عليك مولاك فخشعت نفسك ، وخفق قلبك ، واهتزت روحك ، واقشعر جلدك ، فثم الحلاوة كلها والجمال كله ، والنعيم المقيم ، إنها إذن حلاوة الدعاء ، وما أدراك ما حلاوة الدعاء ؟ ، علامة قبول ، وإشارة وصول ، وعلامة رضا ، يفشى لك سرها هذا العبد الصالح فيقول : لما أخذ الحجاج سعيد بن جبير قال : ما أراني إلا مقتولا وسأخبركم : إني كنت أنا وصاحبان لي دعونا حين وجدنا حلاوة الدعاء ، ثم سألنا الله الشهادة ، فكلا صاحبي رزقها ، وأنا أنتظرها ، قال : فكأنه رأى أن الإجابة عند حلاوة الدعاء[1] . إن القلب حين يحضر الدعاء ، تتحطم القيود ، وتزول الحدود ، وينشرح الصدر ، ويتذوق القلب حلاوة القرب ، وتشف الروح ، وتحلق النفس ، وتفرح بالمناجاة ، وتسعد بنعيم لا يدركه إلا الربانيون ، ولو علم به الملوك وأبناؤهم لجردوا من أجله السيوف ، ولقاتلوا على

(1) حلية الأولياء . جـ4 صـ 274 .

حلاوته أولياء الله وأحباءه ، ولكن هيهات ، فوجل القلب ، وخلجة النفس ، وخفقه الروح خاصة بالمؤمنين ، يشرحها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:2] ، وإليك ما يقوله سيد رحمه الله ،في تلك الحالة التى تصيب القلب المؤمن عند الذكر يقول : (**إنها الارتعاشة الوجدانية التى تنتاب القلب المؤمن حين يذكر ربه في أمر أو نهى ، فيغشاه جلاله ، وتنتفض فيه مخافته ، ويتمثل عظمة الله ومهابته ، إلى جانب تقصيره هو وذنبه ، فينبعث إلى العمل والطاعة ، أو هي كما قالت أم الدرداء : الوجل في القلب كاحتراق السعفة ، أما تجد له قشعريرة ؟ قال : بلى ، قالت : إذا وجدت ذلك فادع عند ذلك ، فإن الدعاء يذهب ذلك ، إنها حال ينال القلب منها أمر يحتاج إلى الدعاء ، ليستريح منها ويقر، وهي الحال التى يجدها القلب المؤمن حين يذكر بالله في أمر أو نهى فيأتمر معها وينتهي كما يريد الله ، وجلا وتقوى لله**) [1].

إن حضور القلب إذن وإدراكه حال الدعاء شرط لازم من شروط القبول ، أما حضور البدن وانصراف الروح إلى أمنياتها ، وطيران القلب في شهواته ، فذلك لا يسمن ولا يغنى ، ولذا حذر النبي ﷺ من تلك الحال فقال : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل لاه [2].

إن الحرام داء ، والحلال شفاء ، وكل شيء يمرق إلى جوفك فيه شبهة فهو بلاء ووباء ، فهل سألت نفسك مرة عن مصدر ما يدخل جوفك ويستقر في بطنك ؟ هل تريثت شيئا قليلا قبل أن تلقى اللقمة في فمك وفكرت : أهي طيبة المعدن طاهرة المصدر أم دنستها الشوائب ولوثتها الشبهات ؟ ووالله : إن الأمر جد ، والأثر خطير ، والعواقب وخيمة ، فرب لقمة من حرام لا تلقى لها بالا ، تفسد عملك

(1) الظلال جـ3 صـ 1475 .
(2) أخرجه الترمذي والحاكم .

وتحبط سعيك ، وتهدم بنيانك وأنت تظن أنك أحسن الناس صنعا ، وأعظمهم كسبا ، وأكثرهم ربحا ، ويضحك الشيطان ويسخر منك العدو ، وأدعوك أيها الحبيب لتتأمل هذا الخبر ، جاء في شعب الإيمان للبيهقي عن يوسف بن أسباط قال : إن الشاب إذا تعبد قال الشيطان لأعوانه : انظروا من أين مطعمه ؟ فإن كان مطعمه سوء قال : دعوه يتعب ويجتهد ، فقد كفاكم نفسه . يا الله إن الخبيث يعلم من أين يأتي الفقراء أمثالنا فانتبه ، وتذكر دائما أن العمل الصالح مع الحرام بنيان فوق رمال وسراب إلى زوال .

إن أكل الحلال أخي يفيد الجسم ، ويصحح الأعضاء ، ويجلب الشفاء ، وينعش الروح ، ويحصن النفس من كل داء ، ويزود العمر بالبركة والنماء ، وينور القلب ويرققه ، ويجلب له الخشية من الله تعالى ، والخشوع لعظمته ، وينشط الجوارح بالطاعة والعبادة ، ويزهد في الدنيا ويرغب في الآخرة ، ولأجل هذا كله خصك ربك أيها الحبيب بهذا النداء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [البقرة:172] يقول سيد رحمه الله : (**إن الله ينادى الذين أمنوا بالصفة التى تربطهم به سبحانه ، وتوحي إليهم أن يتلقوا منه الشرائع ، وأن يأخذوا عنه الحلال والحرام ، ويذكرهم بما رزقهم فهو وحده الرازق ، ويبيح لهم الطيبات مما رزقهم ، فيشعرهم أنه لم يمنع عنهم طيبا من الطيبات ، وأنه إذا حرم عليهم شيئا فلأنه غير طيب ، لا لأنه يريد أن يحرمهم ويضيق عليهم**) [1] .

وقد استوعب الصالحون الدرس ، وأدركوا الحكمة ، والتقطوا الموعظة ، فآمنوا أن العمل لا يقبل ، وأن الدعاء لا يرفع ، إلا بالحلال ، وأن الحرام مانع من قبول العمل ، وحائط صد أمام الدعاء ، وخذ هذه النفحة من وهيب بن الورد يتحفك بها ، يقول رحمه الله : لو قمت مقام هذه السارية – العمود – لم ينفعك شيء حتى تنظر ما يدخل بطنك ، حلال أم حرام [2]، لو قمت كالسارية في المسجد لا تفارقه ، وأضنيت نفسك في الطاعة ، وأذبت بدنك قاعدا وقائما ، ما نفعك

---

(1) الظلال . جـ 1 صـ 156 .

(2) جامع العلوم والحكم . صـ 109 .

ذلك ، حتى تطيب مطمعك ، ويقول إبراهيم بن أدهم : رأيت عابدا يقوم إلى الصلاة بثقل ، فنظرت فإذا هو من عدم صفاء مأكله ، ولو أنه أكل حلالا ، لم يحصل له ثقل [1]، اقرأ هذا الكلام أخي . وقف أمامه طويلا وتدبره جيدا ، واعلم أن الحلال الخالص ، نادر عزيز لا يطلبه إلا القليل ، ولا يحرص عليه إلا كل تقى نقى ، وهذا ليس اليوم فقط بل من قديم ، وما أجمل وأغلى قول يونس بن عبيد : ما ثم اليوم أقل من درهم طيب ، ولو وجدناه لاستشفينا به مرضانا[2] ، وهذا في زمانه ، فكيف أيها الحبيب بزماننا ؟ فطهر جوفك وأطب مطعمك يرفع عملك ، ويقبل سعيك ، وتستجاب دعوتك.

كانت هذه أيها الحبيب بعض الموانع التى تحول بينك وبين القبول ، فاقرأها بدقة ، وقف أمامها بعناية ، وتطهر منها حتى لا تحرم خير" **استجب لكم** " ولا تفوتك بركة : " **فإني قريب** ".

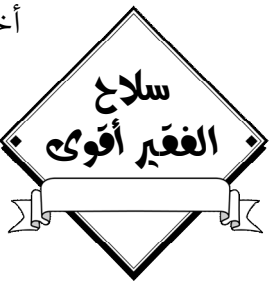

أخي ، أنت بذاتك ضعيف ، وأنا أضعف منك ، والضعف صفة ملازمة لي ولك في كل حين ، فكيف إذا دار الزمن علينا دورة ، وصرنا قصعة تحلقت الكلاب حولها ، ونهشت الكلاب والذئاب وهوام الأرض ما بها ؟ إنها حال لا حول لي ولا لك عندها إلا بالله ولا قوة لي ولا لك إلا بالدعاء ، فإنه قذائف الحق ، وراجمات الباطل ، وسلاح الفقير أمام عتو الشياطين ، وعربدة أهل الكبر والاستعلاء ، وهذا المعنى يؤكده لك خالد بن صفوان بقوله : اتقوا مجانيق الضعفاء[3] ، ونحن اليوم أخي بأنفسنا ضعفاء ، وبموازين القوى لا حول لنا ولا قوة ، فكيف ننام عن تلك المجانيق ، ونغفل عن هذه السهام والقذائف ؟ إن مجانيق الدعاء إذا استجمعت شروطها تصيب ، وإذا أطلقت قذائفها لا تخيب، ولك في البطل الشهيد نور الدين محمود وفي خبره عظة ، فماذا كان من خبره ؟ لقد رأى أصحابه ورجالاته كثرة ما ينفق على المساكين ، واهتمامه الخاص بطلبة العلم ، وحرصه عليهم ، وطلب

---

(1) تنبيه المغترين . صـ 214 .

(2) نفسه : صـ 144 .

(3) البيان والتبيين للجاحظ . جـ1 صـ 352 .

الدعاء منهم ، فعاتبوه بحجة أنه يبدد الأموال على هؤلاء ، ويتلف خزائن الدولة على الفقراء ، والجند في ميادين القتال بذلك أولى ، فهل نزل على رأيهم ، ونسج على منوالهم ؟ لا والله ، وإنما واجههم بحجة بالغة ، ورأي صائب ، وإيمان عميق ، فقال: والله إني لا أرجو النصر إلا بهؤلاء ، فكيف أقطع صلات قوم يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ وأصرفها إلى من لا يقاتل عنى إلا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ ؟.

إن عليك الآن أخي أن تحنى رأسك إجلالا وإكباراً لرجل وهبه ربه كل هذا الفقه ، ورزقه هذه الفهم ، وملأ قلبه بأنوار الحكمة ، فأدرك حقائق الأمور ، في وقت يقف غيره عند ظواهرها ، فتدبر أخي قوله : كيف أقطع صلات قوم – يقصد الضعفاء والفقراء وطلبة العلم – يقاتلون عنى وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ ؟ – إنه يقصد سهام الإصابة ومدافع الليل ، وقذائف السحر – وهي أسلحة الفقراء حين تتجافي جنوبهم عن المضاجع يرفعون أكفهم ويناجون مليكهم ، يسألون النصر ، ويدفعون الضر ، ثم تأمل أخي قوله : وأصرفها – يقصد الهبات والصلات – إلى قوم – يقصد من معه من قادة وجند – لا يقاتلون إلا إذا أمرتهم ، وبسهام قد تخطئ وقد تصيب ، وتلك حقيقة ، فسهام الليل لا تخطئ ، أما سيوف الجند فقد تصيب وقد تخطئ ، فاملأ أخي جعبتك ، وارم سهامك ، وتخير وقت الإجابة ، وأنعت لك وقت السحر ، قو به ضعفك ، وأصلح به نفسك ، وانصر به أمتك في زمن صار النصر فيه أمنية تداعب الخيال ، وحلما جميلا من الماضي ، يتراقص فوق الجفون.

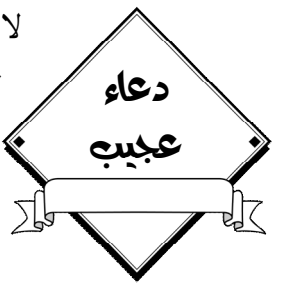

لا تحمل هم الإجابة ، ولا ترهق نفسك بالتفكير فيها ، ولا تشتت ذهنك في انتظارها ، لأنك مع الدعاء في روضة يانعة ، وحدائق ذات بهجة ، فماذا يطلب ذو اللب بعد ذلك ؟ وربك أيها الحبيب هو الغنى ذو الرحمة ، فكن على ثقة أنه ما خلقك ليضيعك ، ولم يأت بك من العدم إلى الوجود ليضيق عليك ، فلا تحمل إذن هم الإجابة ، ولكن هم الدعاء ، فإذا فتح عليك باب الدعاء ، وهداك إليه فأبشر ثم أبشر ، ولله در ابن عطاء حيث يقدم لك زهرة ندية ، وثمرة غضة طرية ، وحكمة من بستانه عذبة شهية ، يقول : كفى من جزائه لك على الطاعة أن

رضيك لها أهلا ، ومتى أطلق لسانك فاعلم انه يريد أن يعطيك ، يا الله ، يا مثبت القلوب ، ثبت قلوبنا لتحتمل هذه المعاني ، إنه يقول لك : إن الكريم يلقى على لسانك ما يريد أن يمنحك فلا تحمل هم الجواب ، فإذا ألقى في روعك الطلب ، وأطلق بالسؤال لسانك ، فاعلم أنه يريد أن يتحفك ، ولهذا يقف المرء أحياناً على أدعية عجيبة ، يشعر أمامها ، أن ربك أوحى بها ، فاقرأ أخي هذا الدعاء ، ورده مرة بعد مرة ، وتأمل لتعلم أن الدعاء عطاء ، وأن الطلب من المولى فن لا يحسنه كثير من الناس ، قال الأصمعى : وقف أعرابي أمام الروضة الشريفة فقال : اللهم هذا حبيبك وأنا عبدك والشيطان عدوك ، فإن غفرت لي سر حبيبك ، وفاز عبدك ، وغضب عدوك ، وإن لم تغفر لي غضب حبيبك ، وهلك عبدك ، ورضي عدوك ، وأنت أكرم من أن تغضب حبيبك ، وتهلك عبدك ، وترضى عدوك ، اللهم إن العرب الكرام إذا مات منهم سيدا أعتقوا على قبره ، وإن هذا سيد العالمين فأعتقنى على قبره ، قال الأصمعي : فقلت يا أخا العرب : غفر الله لك وأعتقك على حسن سؤالك[1]، اقرأ أخي هذا الدعاء مرة أخرى ثم أجب : هل رأيت أو سمعت بعد كتاب ربك وسنة نبيك دعاء مثل هذا ؟ إنه دعاء فطرة لم تلوث ، وطبيعة تسيل في بساطة ، نقية بيضاء كأمواج البحر لا تكلف فيها ولا تجمل ، فإن وفقت لمثلها فهنيئا لك ، وإن لم يكن ، فبما فتح الله لك ، وكن على يقين بأن البر الرحيم لن يرد دعاءك ولن يخيب رجاءك ما دام قد ألهمك وأطلق لسانك.

ولا يجمل بنا أيها الحبيب أن نترك هذه الروضة ، دون أن نعطر الأجواء ، ونرطب القلوب ، وننعش النفوس بنماذج من الدعوات المستجابة ، وصور مشرقة من استجابات السماء لدعوات الربانيين ، ليزداد المؤمن إيمانا ، ويمتلئ قلبه يقينا بأن المولى قريب ، وحاضر لا يغيب ، بابه مفتوح وسائله لا يخيب ، فإليك هذه الزهرات من الدعوات الطيبات ، التى اخترقت السبع الطباق ، **ولامست العرش** :

---

(1) في ملكوت الله . صـ 7 . عبد المقصود سالم .

1 – جاء خادم المأمون – الخليفة – إلى الإمام أحمد ، وهو يمسح دموعه بطرف ثوبه ، ويقول : يعز على يا أبا عبد الله أن المأمون قد سل سيفا لم يسله قبل ذلك ، وأنه أقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه إلى القول بخلق القرآن [1]، ليقتلنك بذلك السيف ، قال : فجثى الإمام أحمد على ركبتيه ، ورمق بطرفه إلى السماء وقال : سيدي غر حلمك هذا الفاجر ، حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق ، فاكفنا مؤنته ، قال : فجاءهم الصريخ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل [2] .

ما تقول أخي في هذه الزهرة ؟ أرأيت كيف يدافع الله تعالى عن الذين آمنوا ؟ أرأيت سرعة استجابة الرب للعبد إذا كان العبد ربانيا كالإمام أحمد ؟ لقد كفي الله تعالى الإمام مؤنة الفاجر كما طلب ، فأخذه أخذ عزيز مقتدر ، فليحذر الذين يحاربون الله ورسوله ويؤذون أولياءه ، فإن الله تعالى يغار على عباده كما يغار أحدنا على عرضه وماله .

2 – وهذه أخت لها أيها الحبيب ، وهي أيضا للإمام الصابر المحتسب ، إمام أهل السنة ، الإمام أحمد ، لا تقل عن التى سبقتها جمالا وبهاء وروعة ، روى الإمام البيهقى أن رجلا جاء إلى الإمام أحمد فقال : إن أمي مزمنة مقعدة منذ عشرين سنة ، وقد بعثتنى إليك لتدعو لها ، فكأن الإمام غضب من ذلك ، وقال : نحن أحوج بأن تدعو هي لنا من أن ندعو لها ، ثم دعا الله عز وجل لها ، فرجع الرجل إلى أمه ودق الباب ، فخرجت أمه على رجليها وقالت : قد وهبني الله العافية [3].

لقد علمت أيها الحبيب أن ربك كريم ، لا يرد يد سائل ، ولا يخيب رجاء طالب ، فكيف إذا كان السائل وليا من أوليائه ، وصفيا من أصفيائه ، في وزن الإمام أحمد ؟ فتدبر أخي واعتبر ، وعش في هذه الروضة محلقا مع قصص الصالحين ، وأدعية الربانيين ، ففيها لروحك شفاء ، ولقلبك دواء ، ولإيمانك زيادة ونماء.

---

(1) يعتقد أهل السنة أن القرآن الكريم كلام الله ، منه خرج وإليه يعود وكفي .

(2) البداية والنهاية جـ 5 صـ888 . ابن كثير .

(3) نفس المصدر جـ 5 صـ 885 .

3 – وهذه ثالثة من عبد فقير ، خامل الذكر لا يعرفه أحد ، ولا يشعر به الناس ، ولا ضير في ذلك ما دام معروفا ومشهورا عند رب الناس يقول عطاء السلمى : منعنا القطر فخرجنا نستسقى ، فإذا نحن بسعدون في المقابر ، فنظر لي وقال : يا عطاء أهذا يوم النشور ؟ أوبعثر ما في القبور ؟ فقلت : كلا ، ولكن منعنا القطر فخرجنا نستسقى ، فقال : يا عطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية. فقال : هيهات يا عطاء قل للمتبهرجين : لا تتبهرجوا ، فإن الناقد بصير ، ثم رمق السماء بطرفه وقال : إلهي وسيدي ومولاي ، لا تهلك بلادك بذنوب عبادك ، ولكن بالسر المكنون من أسمائك ، وما دارت الحجب من آلائك ، إلا سقيتنا ماء غدقا فراتا تحي به العباد وتروى به البلاد ، يا من هو على كل شيء قدير ، قال عطاء : فما استتم كلامه حتى أرعدت السماء وأبرقت وجاءت بمطر كأفواه القرب ، **فول وهو يقول** :

أفلح الزاهدونا العابدونـــا إذ لمولاهم أجاعوا البطونـــا
أسهروا الأعين العليلة حبا فانقضى ليلهم وهم ساهرونا
شغلتهم عبـــادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا[1].

وإن شئت أن أعلق أخي على هذه الخبر فإنما تستوقفنى فيه بعض كلمات منها :

– قوله :" **بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية** " ، فهو يعنى : أنكم خرجتم تطلبون السقيا ، فبأي قلوب تطلبونها ؟ أبقلوب تفرقت بين الشركاء ، فملكها شركاء متشاكسون ، أم بقلوب ملؤها التوحيد وزادها الإيمان وشرابها التقوى ؟ بقلوب تعلقت بالتراب ، وغاصت في طين الأرض ووحلها ، أم بقلوب تحلق في سماء الإيمان وتسبح في سماوات التقى والإحسان ؟ ويا لها من جملة .

– ثم تأمل أخي قول عطاء يصف حال العبد الصالح سعدون صاحب هذا الدعاء : " **ثم رمق السماء بطرفه** " وهذه الجملة عندي أعجوبة الدهر ، فما سمعت أختا لها أجمل منها في موضعها وفي سياقها ومدلولها ، وهي والله أحب إلي وأشد تأثيرا في نفسي ووقعا في قلبي من آلاف الصفحات ، سودتها الأقلام ، وأخطأها الإحسان : " **ثم رمق السماء**

(1) إحياء علوم الدين . جـ1 صـ 505 . الإمام الغزالي

بطرفه " فكأنه أيها الحبيب ينظر إلى حبيبه من طرف خفي على استحياء ، وهو يعلم أن حبيبه يراه ويسمعه ، ويوقن تمام اليقين أنه لن يرده إذا سأل ، ولن يتأخر عنه إذا طلب ، وهو بالفعل ما قد حدث ، فلم يستتم دعاءه أخي حتى فاضت السماء بماء منهمر كأنه أفواه القرب ، إن لله في خلقه شئون ، وللصالحين عند ربهم مقامات ، وللأولياء مع مولاهم أحوال ، فاللهم ارزقنا حبهم ، ولا تحرمنا بركتهم ، ولا تحجب عنا يوم نلقاك شفاعتهم يا قريب يا مجيب.

4- والأخيرة أخي أجمل وأعجب ، فخذها سماوية ربانية ، تحي القلب وتنعش النفس ، وتحلق بالروح في آفاق من الأمل والرجاء ، لا يطار لها على جناح ، ولا يسعى إليها على قدم ، روى أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس ﷺ فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس : اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، وقد توجه بي القوم إليك ، لمكاني من نبيك ﷺ ، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وأنت الراعي لا تهمل الضالة ، ولا تدع الكبير بدار مضيعة ، فقد جزع الصغير ورقد الكبير ، وارتفعت الأصوات بالشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، قال : فما تم كلامه حتى ارتفعت السماء كالجبال[1] .

ما رأيك أيها الحبيب في هذا المشهد ؟

وما الذي استوقفك فيه ؟

أما أنا، فقد طرق قلبي وأسر نفسي جملتان :

أما الأولى فقوله : لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب ، ولم يكشف إلا بتوبة ، إنه كلام يشبه كلام الأنبياء ، ولم لا والسماء مصدره وعرش الرحمن منبعه ؟ ورب السماء والعرش العظيم هو القائل ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ [الشورى:30] ولعلك بهذا أخي تدرك تمام الإدراك ، لماذا تنقلب الأمة في كل ميدان بهزيمة ، وتبوء من كل رحلة بفشل ، فنحن في ميدان السياسة أمة مستضعفة ، أرضها

---

(1) صحيح وصايا الرسول جـ2 صـ 679 . سعد يوسف عزيز.

منهوبة ، ومقدساتها مغصوبة ، وأقصاها أسير ، لا تدعى إلى شيء ، ولا تستأذن في شيء ، وكأنما **يقصدنا الشاعر بقوله** :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود .

والسبب واضح أخي : لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب أخي ، متى نتوب ؟؟؟؟

ونحن في ميدان الاقتصاد على حال لا تسر ، فقر مدقع ، ومرض مقعد ، وجوع قاتل ، وحاجة مذلة ، نعيش على السؤال ، ونحيا على المعونة ، ونأكل بالتسول ، والسبب أخي واضح : لا ينزل بلاء إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب أخي ، متى نتوب ؟؟؟؟ .

وفي ميدان الأخلاق أيها الحبيب ، حدث ولا حرج ، تهتك وانحلال ، وفوضى تامة ، ومصائب عامة ، وسلوك مرفوض ، وأوضاع مذمومة ، وأثرة بغيضة ، وأنانية مقيتة ، وفردية قاتلة ، ناهيك عن الكذب والنفاق والغش والخداع إلخ إلخ ... والسبب أخي : ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب ، أخى متى نتوب ؟؟؟؟

وفي ميدان العلوم أخي : تخلف ظاهر ، وجهل فاضح ، وأمية مخزية ، وتبعية مذلة ، وحال مهينة ، والسبب واضح أخي : ما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة ، فمتى نتوب أخي متى نتوب ؟؟؟؟ .

أما الثانية أخي فهي قوله : اللهم أغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، إنه فقه المقربين ، أصحاب القلوب الحية ، والنفوس الزكية ، والأرواح المحلقة ، قبل أن يقنطوا فيهلكوا ، يقنطوا من الجواب ، فيصيبهم الشك والارتياب ، في وجود رب الأرباب وقدرة مسبب الأسباب ، وهذا هو الهلاك بعينه ، قبل أن يقنطوا فييأسوا ، ومن ثم يتوقفون عن الدعاء فيهلكوا ، فترك الدعاء لتأخر الجواب يأس وهلاك ، وقد علمنا ما قال ربنا في اليائسين ، فإياك أن تستبطئ النصر أخي وتسأل : متى هو ؟ فالنصر قريب ، بل هو على مرمى حجر ، ولكن المولى لا يعجل لعجلة أحد ، فلا تقنط أخي إذا تطاول الباطل ، وتأخر النصر ، وكن على ثقة تامة ، أن مولاك لن يتخلى عنك أبدا ، ما دمت تولى وجهك شطره ، وتوجه قلبك نحوه ، وترفع يدك إليه ، فقد قضى سبحانه لك

بالنصر ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:21]

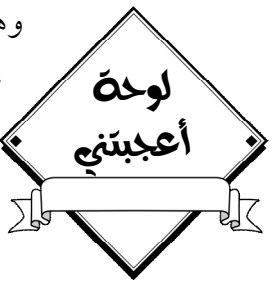

وهذه لوحة بديعة ، تسر الناظر وتسعد الخاطر ، أقدمها إليك على طبق من ذهب ، قبل أن نغادر هذه الروضة ، فضمها إليك ، متع بها نظرك ، وقلب فيها طرفك ، وأنعش بها روحك ، وأسعد بها قلبك ، إنها هدايا الصالحين إليك ، وهم القوم لا يشقى جليسهم ، فاسمع إلى أبي حفص وهو يقول : أحسن ما يتوسل به العبد إلى مولاه : الافتقار إليه ، وملازمة السنة ، وطلب القوت من حله[1] ، إن دعاءك أيها الحبيب مرهون بهذه الثلاث ، فلا تطمعن أن يحلق في الآفاق ، ويخترق السبع الطباق ، حتى تملأ قلبك بها ، وتطوى النفس عليها ، وتلزم هديها ظاهرا وباطنا ، انكسار على باب القهار ، وملازمة لسنة المختار ، ولقمة طيبة من حلال ، فيها للبدن شفاء وللقلب دواء ، وللإيمان بركة ونماء ، إنها ثلاثية لا بد منها لقبول الدعاء ، فخذها أخي وضمها إليك ، انتفع بها ، وانشرها ، ففي نشرها زيادة أريجها ، وعلمها غيرك ففي تعليمها بركة ، وأي بركة ؟

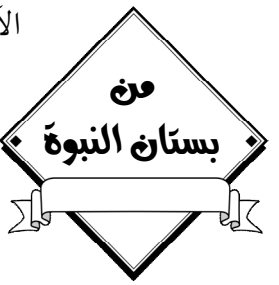

الآن أخي الحبيب ، نحن على الباب ، نوشك أن نغادر ، وليس أزكى للنفس ، ولا أحلى في القلب من حديث الحبيب المصطفى ﷺ فدعنى أتحف نفسي وإياك ، وأزكى روحك وروحي ، وأستنهض همتي وهمتك بحديث في فضل الدعاء ، ليظل معك بعد الوداع ، دافعا إلى الرجاء ، وهاديا إلى الدعاء ، فإليك أخي : عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ليس شيء أكرم على الله تعالى من الدعاء[2] ، إنه مسك الختام من سيد الأنام ، يذكرك بأن مولاك يحب الدعاء ، وللدعاء عنده مكان وأي مكان ، فالزم هذه الروضة ، وكن من الفقراء أهل الحاجة والدعاء ، فهم القوم ولا قوم غيرهم ، وإذا هممت بالدعاء الآن أو غدا ، فتذكر

---

(1) موسوعة الأخلاق . جـ1 صـ 502 . سعد يوسف عزيز .

(2) حسن رواه الترمذى وغيره .

أخاك بدعوة هو فقير إليها ، بعد أن أمرضته ذنوبه ، وأحاطت به خطاياه ، فلعل الشفاء في دعوة منك بظهر الغيب فبالله عليك أيها الحبيب: لا تنس.

أغلقت الباب خلفي ، وقلبي بروضة الدعاء معلق ، وروحي بها هائمة ، ونفسي تلتفت إليها وتأبى أن تودع ، وإذا صوت من داخل الروضة بأعذب لحن وأجمل صوت ينشد ويردد :

يا من أجبت دعاء نوح فانتصر
وحملته في فلكك المشحـــــون.
يا من أحال النار حول خليلـــه روحا وريحانا بقولك " كـــون "
يا من أمرت الحوت يلفظ يونسا وسترتـــه بشجيرة اليقطيـــن
يـــا رب إنا مثلـــه في كربـــــة فارحم عبادا كلهم " ذو النون "

قال صاحبي : ما أجمل هذا الصوت ، وما أحلاه ، كأني قد سمعته من قبل ، قلت كما قال الفرزدق في مثل هذا الموقف : وليس قولك من هذا بضائره ، إنه صوت الدعوة المغرد ، وبلبلها الصداح ، إمام عصره ، ووحيد دهره ، ومن نتقرب إلى الله بحبه ، ونبرأ إلى الله تعالى ممن يبغضه ، إنه صوت شيخنا القرضاوي ، ثم انطلقنا وخلفنا روضة الدعاء وراءنا نبحث عن روضة أخرى.